الخصائص الأسلوبيّة للخطاب الشّعريّ عند سيدي لخضر بن خلوف.

أ.حمو عبد الكريم
المركز الوطنيّ للبحث في الأنثروبولوجيّا الاجتماعيّة والثّقافيّة وهران.

تقديم:

يتمتّع فنّ الملحون برصيد شعريّ وغنائيّ هائل، ممّا يجعله مؤهّلاً بامتياز للتّقاطع مع العديد من فنون الكلام والتّفاعل مع عدد من ألوان الإبداع، وقد تتفاعل في نسيج قصيدة الملحون دعائم فنيّة تقوي لغة شعره مثل: الحكي والقصّ والحوار والوصف والتّشخيص، مع الانفتاح على أفق الخيال المبدع للصّور أحيانا تتجاوز الصّور التّشبيهيّة التّقريبيّة أوالجزئيّة إلى الرّمز والإشارة، أيضا شاعر الملحون لصيق بالوسط الشّعبيّ الّذي أنجب شعره، بالإضافة إلى الرّافد الدّينيّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ الّذي يستقى منه تجربته الفنيّة، إذن ثقافة شاعر الملحون تتجلّى فيما يستدعيه من تراكمات تراثيّة وصوفيّة وفلسفيّة وأدبيّة.

ذاع صيت سيدي لخضر بن خلوف، واشتهر اسمه، وعمّت مناقبه، فكان ربانيّاً زاهد في الدّنيا، مترفّعاً عن متاعها وزخرفها، فاستحقّ بهذه الصّفات مقام الولاية، كلّ هذه الصّفات جعلت منه مثالاً يُقتدى به في الحكمة والموعظة الحسنة، وزادت قيمته وشهرته بإبداعه الشّعريّ الرّائع، خلّده

التّاريخ وتغنّت به الأجيال، حيث جُمعت أشعاره في ديوان شعريّ تناول مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وتناول الأمثال والألغاز والدّعوة إلى التّعاون والتّضامن والدّفاع عن حمى الأرض، "وقضى عمره الطّويل في إرشاد العباد، فقدّم لهم عصارة فكره وما استنتجه من حكم ومواعظ عبر عمره المديد ليموت فقيراً، معدماً، ويُدفن تحت جذع نخلة مُقوّسة لا تزال ظلالها وارفة تقي ضريحه من حرّ الهجيرة."[1]

لقد كان شاعرنا الشّهيد يتغنّى في شعره بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، يقول بخوشة: "طرق لخضر بن خلوف بابا واحدا من أبواب الشّعر، ومَدْحُه ممزوج بالحماسة والحِكم والزّهد بعيد كلّ البعد عمّا لا يناسب الوليّ الصّالح كالغزل والرّثاء، وما بَكى إلاّ على تفريطه أو شوقه للرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فلم يُضارعه أحد من شعراء الملحون في المدح."[3]

فيقول في مدح الرّسول– صلّى الله عليه وسلّم –:

أحْسنْ مَا يُقال عَنــدِي بِسْــم الله وَبِيك نَبْدَا
حُبُك في سُلطان جَسدِي ما عزّك يا عِين وَحْدا
كِيف النَحْلة اللّي تَسْدي تبني شهدة فُوق شَهْدا
يَا مُحَمد أنْت ســيدي صلى الله عليك لبدا[3]

ومن القصائد الصّوفيّة أيضا، قصيدة (نَبْتَدأ الكلمة) وفيها يستعرض فضل الذّكر والدّعاء، وخاصّة التّهليل "لا إله إلا الله" فبها يتقوّى الإيمان وتضمن الجنان يقول:

نَبْتَدأ الكَلمة مَفتَاحْ النْــظام فَاز من عَظمها وأكرم نْزُولهـــــَا
لا إله إلا الله سُلطانة الكْــلام مِتَني يا رَبِ مُسلم نْقـــــــولها

لا إله إلا الله حِصني من الجحيم من دخل حِصن الله لا خَاف ولا نْدم[4]

هذا مقطع من قصيدة طويلة يبرز فيها الشّاعر فضل "لا إله إلا الله" الّتي تعني عند أهل الإيمان والتّقوى معاني ودلالات لا منتهى لها، فمن قالها مُخلصا أُثْبِت إسلامه، وعُصِم من الشّرك وحدّد مقامه مع الصّالحين، ومن تلاها حين وفاته؛ فاز بالجنان، وأمِن من النّار، ومن كان دَيْدَنُه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ارتقى في سلّم الصّالحين، وأثبت استسلامه لله، وتسلّل حبل التّوحيد إلى قلبه، يقول الإمام الغزاليّ: "ولا يزال العبد في خلوته يردّد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب، حتّى تصير الكلمة متأصّلة في القلب مزيلة لحديث النّفس، يذوب معناها في القلب عن حديث النّفس، فإذا اسْتوت الكلمة، وسَهُلت على اللّسان يتشرّبها القلب ولو سكت اللّسان لم يسكت القلب."[5]

هذا الخطاب جدير بالدّرس والتّحليل، فديوانه الشّعريّ مخزون لغويّ وحقل دلاليّ خصب، يجب إحياؤه وإخراجه إلى النّور بمناهج حديثة وبرؤى مختلفة، ومهمّة الباحث والنّاقد استنطاق هذه الأشعار وفكّ رموزها، وتفجير إيحاءاتها ودلالتها للتّوصّل في الأخير إلى تجميع الخصائص الفنيّة الجماليّة والأسلوبيّة للقصيدة والشّعر الشّعبيّ؛ كما يستوجب أيضا دراسة اللّهجة الّتي رسمت حدود القصيدة وتقاطعها مع اللّغة الأمّ (الفصيحة).

و"لغة الشّعر البدويّ أقوى من لغة الشّعر الحضريّ ألفاظها الفصيحة الّتي تمُتُّ إلى الفصحى بنسب قريبة كثيرة، والحكم والأمثال والتّعابير الوصفيّة، وضروب الاستعارة والتّشبيه الّتي تتخلّل أبياتها متعدّدة، وقد

اقتبسوها من القرآن والحديث والفقه وبعض القصائد الفصيحة الّتي درسوها أو حفظوها بالرّواية والسّماع."[6]

لقد انحت اللّغة العربيّة منحيين:

أ- لغة عربيّة فصيحة (نظاميّة) نتعلّمها تنزاح إلى الكتابة والمشافهة.

ب- لغة عربيّة عاميّة نكتسبها (المجتمع)؛ تنزاح للمحاكاة أكثر من التّدوين، "فأغلب الأصول والقواعد الأساسيّة مشتركة بين الفصحى والعاميّة، لا تنفرد العاميّة في قطر عربيّ دون آخر بل تمسّ اللّهجات الدّراجة في معظم أجزاء الوطن العربيّ."[7]

وبالنّسبة للدّارجة الجزائريّة المتداولة وبصرف النّظر عن تعدّد مستوياتها اتّباعا لمستويات المتكلمين بها وحسب مراكزهم وثقافاتهم، فإنّها ليست فقط قريبة من الفصحى بل متفرّعة من الفصحى وفي كثير من الأحيان مشتركة معها في الجذر اللّغويّ والاشتقاقيّ، وقد لحقها التّغيُر والتّبدُل في اللّواحق والزّوائد سواء في مقدّمة أومؤخرة الأفعال والأسماء، وهذه الأسباب يشتغل عليها علماء "علم اللّغة العام."

إنّ الدّارجة هبة لسانيّة اجتماعيّة تواصليّة، يتمّ من خلالها التّحاور والتّخاطب بين الأفراد والجماعات، وتكتسح الدّارجة نسبة كبيرة من التّلفظ اليّوميّ يفوق الخطاب بالفصيح، فهي خطاب الجماهير وهي لسانهم النّاطق عن الأحاسيس والأفراح والأحزان، وهي ديوانهم يحمل موروث يكتنز في أحشائه ذخائر لغويّة وتاريخيّة مهمّة، ولقد عمل المحتلّ للتّصدّى ومقاومة الفصحى بينما الدّارجة عاشت وبقيت ثابتة بجانب الفصحى؛ تقترض من اللّغة الفصحى وتعيش معها جنبا إلى جنب. ومنهم من "اعترف بها حفيدة شرعيّة

للعربيّة الفصيحة من بناتها المتعدّدات الّتي كانت لقبائل تتحدّث بها."[8] والقدماء من العلماء كانوا يسمّون اللّغة الملحونة عامية، واستعمل الجاحظ عبارة "الكلام الملحون" العاميّة زمانه،"[9] فاللّغة العربيّة هي الّتي يتكلّمها العربيّ سواء كان أميّاً أو مثقّفاً، يقول حسين نصّار: «هي اللّغة الّتي نتخاطب بها في كلّ يوم عما يُعَرِّف لنا من شؤون حياتنا مهما اختلفت أقدارنا ومنازلنا: لسان المتعلّمين منّا وغير المتعلّمين، على اختلاف فئاتهم وحرفهم والمثقّفين وغير المثقّفين... يتقارّب المتحدّثون بهذه «اللّغة العاميّة» على «اختلاف أقدارهم ومنازلهم» فيتمّ التّفاهم في يسر وسرعة في أكثر الأحيان، ويتباعدون بسبب هذا الاختلاف حتّى يتعذّر التّفاهم.»[10]

أوّلا- عناصر الخطاب الشّعريّ الخلوفيّ: تتميّز قصائد سيدي لخضر بن خلوف بخصائص منها:

1- **القصّة:**

هي شكل من أشكال التّعبير تتبلور فيه أذكى نفحات المشاعر، وتتجلّى فيه شتى النّوازل والعواطف من إنسانيّة وقوميّة وتاريخيّة واجتماعيّة ووجدانيّة؛ من خلال سرد حادثة معيّنة بأسلوب يستحوذ على القارئ، ويثير انتباه فيتابعها بشغف ولذّة، يسير معها حتّى تتأزّم المواقف فيها، فتصل أحيانا إلى التّعقيد فيتطلّع حينئذ إلى حلّها ونهايتها.

نموذج شعريّ يروي قصّة رجلين وهب الله لهما مالاً، فأحدهم كريم والآخر بخيل، واعتقد أنّ الشّاعر اقتبس نصّه من القرآن الكريم، مصداقا لقوله تعالى: "**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً.**"[11]

يقول لخضر بن خلوف:

نْوَرِيكم قِصة جرات الأيام الفُـــوت مابين خُوتين هابو المال كثير
عاشوا حتى قضى عليهم الله بالموت وتشتت مالهم على حــدا الغير
كان منهما البخيل محــروم القوت وأما خُوه سهمه عند الله كبير
قضوه فــي السّاع بالصواب ونْقص مال البخيل وتْشَين حــاله[12]

لقد أحسن الشّاعر توظيف أحداث القصّة، وأبرز دور شخصيّاتها، وهذا دليل أنّه متشبّع بالتّراث الإسلاميّ وقارئ للذّكر الحكيم، حيث وظّفها في قالب شعريّ قصصيّ رائع بأسلوب من البساطة في اللّفظ وفي السّياق ليسهل على السّامع حفظها والاستشهاد بها في مجالس الحديث؛ يبرز حجّته ويقحم مجادليه.

ويقول في قصيدة أخرى: "أحسن ما يقول عندي"

أحْسن ما يقـــال عَندي بسم الله و بِيك نبـــدا
ما عزّك يــا عِين وَحْدا حُبك فــي سُلطان جَسدِي
كِيف النحلة اللي تَسْدي تبني شهدة فُوق شهدا
يا محمد أنت سِيدي صـــلى الله عليك لبــدا

ما نلاحظه في هذا المقطع الشّعريّ شيوع الأسماء، وقلّة الأفعال حيث نجد خمسة أفعال فقط، والسّبب يعود إلى موضوع القصيدة، فهو في مقام المدح ووصف الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم–، وليس سردا أحداث وقائع تاريخيّة، فالشاعر يصلي على الرّسول – صلّى اللّه عليه وسلّم–، فصلاته على قدر طول الدّهر، وعلى قدر عدد نجوم اللّيل، وعلى عدد قطرات المطر

النّازل، وعلى عدد حيتان البحر وما امتاز به هذا المقطع فصاحة في الألفاظ وندرة العاميّة سوي ما نجده في قوله: الهيه، بيك، الساس نبر...

أمّا قصيدة "قصّة مزغران معلومة" الّتي تروي أحداثا تاريخيّة ومجريات المعركة، لا شك أنّ الشّاعر الشّعبيّ يتأثّر بالأحداث الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة، ويتفاعل مع قضايا الوطن، يقول في مطلعها:

يا سيلني عن طراد الــروم قصّة مزغان معلومـــــــة
يا فَارِس من ثم جِيْت اليَوم عِيْد اخبار الصّحْ معلومـــــة
يا عجلان ريض الملجوم رايت اجنود الشّوم ملمومــة
يا سايلني عن طراد الروم قصة مزغران معلومـــــــة
يا سايلني كيف ذا القصــــة بين النصراني وخير الديــن
اجتمعوا في برهم الاقصى بجيش قوي جاوا معتمدين[13]

حيث غلب على هذه القصيدة الألفاظ العاميّة والأسماء الاسبانيّة للقادة وضباط الجيش الإسبانيّ مثل: سنضاظوش الّتي تعني القائد، الشّيليه تعني دراع واق، لخنت تعني النّاس، مرير مقتول البنش.. وأيضا كلمات تركيّة نجدها في النّصّ مثل: بقربصولو تعني السّرج الّذي يوضع على الفرس، باشا: مرتبة عسكريّة، الطّرشون تعني الرّاية أو العلم، قياطين تعني الخيمة، البوجي تعني الشّمعة.

2- المثل:

هو المرآة العاكسة لعادات وتقاليد الشّعوب، فهو نابع من المجتمع وللمجتمع، وهو بمثابة الميزان الّذي يبرز رقي أو انحطاط الشّعوب في الشّقاوة والنّعيم، في الأفراح والأقراح، في الحريّة والعبوديّة، والسّلم والحرب، فهو صفوة الأقوال وعصّارة الأفكار والأجيال سبقتنا عبر التّاريخ، والمثل زينة الكلام الصّادر عن البلغاء والحكماء.

يقول الشّاعر ضاربا لنا مثلاً عن الدّنيا والآخرة مثل: الضّرائر عند الرّجل، إذا رضت الأولى تغضب الثّانية، فاستحالة إرضائهما كما يستحيل على الإنسان الجمع بين الدّنيا والآخرة، يقول:

الآخِرة والدنيا تمَثِيلهم ضرايـر مْنين ترضى وحدة تغضب عليك الأخرى
هذه الدنيا اضْحَات لاخرة ضرة دي تحفر لديك والملغى تالـــــــــي
الدُنيا خادم والآخرة هي الحُرة فروا عن كلبة الكلاب الرجـــــــــال
الدنيا عْلة الشبـــاب وعذاب الشيخ تاعبين جـــــــاي وغادي[14]

ثانياً- الخصائص الفنيّة للخطاب الشّعريّ عند سيدي لخضر بن خلوف:

1 - رغم أنّ لخضر بن خلوف بإمكانه كتابة الشّعر باللّغة الفصحى السّليمة، إلاّ أنّه أراد أن يُبلِّغ شعره بالعاميّة؛ موجّها إلى الجمهور العالم والمتعلّم، الأميّ والجاهل، على حسب مستوياتهم الفكريّة والمعرفيّة والاجتماعيّة، و"لم يُعرف أنّ لغة اجتمع لها من رقّة اللّفظ ودقّة المعنى وسلامة التّعبير ما عُرف عن اللّغة العربيّة، فإنَّ المتتّبع لأحكامها اللّغويّة وقواعدها النَّحويّة والصّرفيّة، وأسرارها البلاغيّة والنّقديّة ليقف مندهشاً أمام

تماثل مفرداتها وموسيقى تعابيرها حتّى ليُخيَّل إليه أنَّ لكلّ كلمة وضعُها مُرهف الحسّ، وإنَّ لكلّ تعبير صائغاً أُوتي من التّفكير، وسلامة الذّوق ما لم يُؤت سائر النَّاس، الأمر الّذي قدَّر لهذه اللّغة الانتشار والصّمود، وللأمّة النّاطقة بها البقاء والخلود."[15]

2- توظيف الشّاعر للجمل (الاسميّة والفعليّة) والتزامه الأسلوب الخبريّ التّقريريّ؛ حيث أحسن بناء وتركيب الجمل والتّقديم والتّأخير.

3- التّبدّلات النّحويّة (الزّيادة والنّقصان) كإلحاق حرف الياء الممدودة في آخر ضمير المتكلّم (أنا)، وضمير المخاطب (أنت) مثل قوله:

أنا يا جبريل يانبي الله هما آسرع وانتيا واش خذاك

4- حذف حرف النّون من الفعل المضارع مثل، قوله:

تحسبوا النار فيَّ تظلم وأنا لا مصادف وعدي

والأصل في الفعل تحسبوا = تحسبون، ومثل ذلك أيضا في أسماء الإشارة: هُنا للمفرد القريب وتوظيفها بـــ: هْنَا، والهيه للمفرد البعيد بمعنى هُناك، وهَذو للجمع القريب بمعنى هَؤلاء وهَذوك للجمع البعيد بمعنى أولئك.

5- ظاهرة التّكرار سواء من حيث الألفاظ أو التركّيب.

6- توظيف بعض المفردات والأسماء الدّخيلة على العربيّة وقصيدة "قصّة مزغران" دليل على ذلك.

7- الاستشهاد والاقتباس من ألفاظ القرآن الكريم مثال على ذلك:

اليوم الكافر يقول يا ويلي ليت كنت ما بين الما والطوب

ونجد في النّصّ القرآنيّ هذا الاقتباس في قوله تعالى: "**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا.**"[16]

ونجد الشّاعر يسرد بعض وقائع القصص القرآنيّ مثل قوله:

يا مْسَلك الغارق مثل سفينة نُوح منْ رْكَب فيها ناجي

وفي القرآن نجد "**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.**"[17]

8- **كثرة التّشبيه:** فالتّشبيه عمليّة مقارنة بين شيئين تعتمد على قوّة التّصوير والإيحاء مثل قوله:

والصْلاة عليك تمحي بها ذنوبي كيف الما للثوب مطهرين[18]

فالشّاعر يصلّي على الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم – ويشبّه الصّلاة بالماء المُطَهِّر لدنس الثّوب؛ فالصّلاة على الحبيب تمحي سيّئات القلوب: المشبّه (الصّلاة)، والأداة (كيف)، والمشّبه به (الماء)، ووجه الشّبه هو الطهارة.

9-الاستعارة: يقول:

العَسَلْ فايضة من لِساني والشّهد اللّي بْلا نحلة وبلا قصاب[19]

10-**الكناية:** يقول: **من طَار يَعلا ويْهَود**[20]، وهي كناية على أنّ الموت حقّ، والشّرّ مآله الزّوال، ويقول أيضا:

راهم غابوا الوجوه المْلاح من الدنيا مَغرور اللّي يشد فيها باليدين[21]

وهي كناية عن مقت الدّنيا وزخرفتها، وعلى الإنسان غرس الشّيء الجميل، كي يحصد الجميل ويزرع ذكر الله، والتّسبيح والتّهليل حتّى نجده في الآخر زادا يدخله الجنّة.

خاتمة:

إنّ الخطاب الشّعريّ لابن خلوف ميراث أدبيّ وثقافيّ رائع، وجزء مكوّن لهويتنا الثّقافيّة وعراقتنا الدّينيّة والتّاريخيّة المتجذّرة والّتي لا يمكن الاستهانة بها؛ حيث رسم لنا الشّاعر مرحلة من مراحل الجزائر العميقة، ورسم لنا حياة وعادات وتقاليد وتجارب الإنسان الجزائريّ في ذلك العصر، يقول أبو حامد الغزاليّ :"إنّ لكلّ وقت أدب، ولكلّ حالة أدب، ولكل ّمقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرّجال ومن ضيَّع الآداب فهو بعيد من حيث يرجو القبول... حسن أدب الظّاهر عنوان حسن أدب الباطن لأنّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم – يقول:لو خشع قلبه لخشعت جوارحه."[22] فلقد غذّى سيدي لخضر بن خلوف من خلال أشعاره الذّاكرة الجماعيّة الجزائريّة، وغرس فيهم حبّ الوطن والدّفاع حياض الإسلام وبارك الجهاد والمقاومة، وجند الجنود وجهّز الجيوش ودحض قوى الغزو والطّغيان، فكان المجاهد والمربي والشّاعر والمريد...الخ؛ بالإضافة إلى أنّه حافظ على اللّغة العربيّة واللّهجة الجزائريّة، واستطاع التّقرب إلى الطّبقة الشّعبيّة الدّنيا بأشعاره، وهذا هو سرّ خلود أشعاره وخطاباته إلى اليوم.

الإحالات:

1- غارورديّ محمد، من التّراث، قصّة مزغران معلومة، عدد 1031، ص: 02.
2- بخوشة محمد – الدّيوان– ط1، 1958م، ص: 06.
3- المرجع السّابق، ص: 41.
4- المرجع السّابق، ص: 56.
5- أبو حامد الغزاليّ، إحياء علوم الدّين، ج5، ص: 129 .
6- رابح بونار، الشّعر الشّعبيّ وتطوّره الفنيّ، مجلّة آمال، عدد: 69، 1969م، ص: 41 .

7- العاميّة الفصحى في القاهرة والرّباط، عبد العزيز بن عبد الله، اللّسان العربيّ، عدد: 22، ص: 58.
8- معجم تيمور الكبير، أحمد تيمور، تحقيق، حسين نصّار، ط1971م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج1، ص: 07.
9- البيان والتّبيين، الجاحظ،ج 1، ص: 46.
10- المرجع السّابق، ج1، ص: 05.
11- سورة الكهف، الآيتان: 35- 36.
12- بخوشة محمد – الدّيوان- ط1، 1958م، ص: 06.
13- سيدي لخضر بن خلوف حياته وقصائده، منشورات جمعية آفاق مستغانم، الجزء الأوّل، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2006م، ص: 167- 168.
14- المرجع السّابق، ص: 15.
15- اللّغة والتّراث والحضارة، عبد الرّحيم سلامة، دار الكتاب الدّار البيضاء، 1973م، ص:11.
16- سورة النبأ، الآية: 40.
17- سورة العنكبوت، الآية: 15.
18- بخوشة محمد، الدّيوان، ص: 58.
19- المرجع السّابق، ص: 114.
20- نفسه، ص: 81.
21- نفسه، ص: 112.
22- أبو حامد الغزاليّ، إحياء علوم الدّين، ج5، ص: 65.